**شاعريّة العين**

**قراءة في قصيدة ـ وادي اللّيل ـ**

**للشّاعر صلاح الدّين الحمادي**

**بقلم ـ سُوف عبيد**

للعين عدّة معان في اللّغة العربية فهي عضو البصر وهي ينبوع الماء وتعني أيضا الجاسوس وكبير القوم كما تدلّ على ذات الشّيء ونفسه وهي تعبير عن المال وعن النّفيس من كلّ شيء إلى غير ذلك من المعاني حسب السّياق الّذي وردت فيه ولئن قيل أنّ الأذن تعشق قبل العين أحيانا فذلك لأن العين عادة هي نافذة الوجدان قبل بقيّة الحواس واذا كان أصل التّلقّي في تاريخ الشّعر العربي المشافهة والسّماع سواء من الشاعر بذاته أو عن طريق الرّواية فانّ ذلك الشّعر نفسه قد وصلنا بواسطة الكتابة في هذا العصر وبالتّالي فقد أصبح للعمليّة البصريّة تأثيراتها المختلفة على استيعاب النّص الشّعري بما فيه من نوع الخطّ والورق وتوزيع الأسطر والكلمات والنّقط على الصّفحة...هذا كلّه أضاف زوائد أخرى الى النّصّ الملفوظ والمسموع وقد اِنتبه بعض المعاصرين الى الفرق بين الشّاعرين حافظ إبراهيم وأحمد شوقي وقصائدهما حيث كانت قدرة حافظ إبراهيم على شدّ انتباه الحاضرين تفُوق قدرة أحمد شوقي بفضل جودة إنشاده التي يتفوّق فيها على إنشاد أحمد شوقي الّذي كان أولئك الحاضرون يكتشفون فيما بعد جماليّة قصائده وجودتها حين يتمّ نشرها عبر الصّحافة المكتوبة...

أردت بهذا المثال تأكيد الفرق بين تلقّي النّص عبر السّماع حين يقوم بإنشاده الشّاعر مباشرة وبينه عندما يصلنا عبر الكتابة فالفرق بينهما يظلّ واضحا على المستوى التّأثيري على الأقل

\*\*\*

النّص الشّعري الّذي تفاعلتُ معه من خلال هذه القراءة تلقّيتُه عبر الحاسّة البصريّة أي من خلال الكتابة ووسيلة التّلقّي هذه جعلت تركيزي ينصبّ بداية على العنوان الّذي يتصدّر غلاف الدّيوان

ـ وادي اللّيل ـ هو عنوان المجموعة الشعرية وهو أيضا عنوان لقصيدة تضمّنتها المجموعة الشّعرية للشّاعر صلاح الدّين

الحمادي الذي ينتمي إلى موجة شعراء التسعينات في تونس .

**ملاحظات على سبيل المدخل**

1- العنوان مكتوب باللّون الأبيض وبحروف هي الى التّصميم بالكمبيوتر أميل منها الى الحروف النّسخية فأصبح الأبيض يدلّ على الأسود حينئذ

2 - لوحة الغلاف هي للفنّان حمّادي بن سعد الّذي ينضوي تحت لواء المدرسة السّاذجة في الرّسم واللوحة هي عبارة عن ثلاثة أشكال هلاميّة تمثّل ثلاث هيئات لرجل في حالة الوقوف والانحناء والقعود مع تداخل وتنوع في الألوان والخطوط وهذا التّعدّد والتّداخل يُتيح الفرصة للخيال نحو الانطلاق والتّحليق

3 - تبدو خلفيّة الرّسم للرّجل ذي الأشكال الثلاثة بلون أزرق وعند أعلى اللّوحة يبدو هلال باللون الأبيض أمّا بقيّة ألوان اللّوحة فهي الأحمر الآجري والأزرق الدّاكن والأخضر المَشُوب بصُفرة وزُرقة مع انسياب لألوان الرّمادي والبنفسجي والحبري.

4 - يمكن ملاحظة عند أسفل اللّوحة اللّون الرّمّاني الّّذي يمثّل جزءا من انثناء فخذ وساق ربما لأنثى حيث كُتب العنوان - وادي اللّيل -

إذن ثمّةَ سؤال يفرض نفسه وهو : إلى أيّ حدّ تلتقي هذه اللّوحة بهذه القصيدة وتبوح بما فيها وتعبّر عن مضامينها ؟

\*\*\*

من هنا نمضي الى المساءلة البصريّة الّتي نلاحظ فيها أيضا أنّ القصيدة تبدأ من الصّفحة 83 وتنتهي في الصّفحة 93 وهي سبعة أقسام أو أجزاء يفصل بينها البياض وأسطر من المُنمنمات الصّغيرة من أشكال الكمبيوتر وقد وردت كلماتها على النّسق السّردي للكتابة النّثرية وتَراوح خلاله النّسقُ العموديّ أي صدر وعجز للكتابة الشّعرية مع النّسق الحرّ للشّعر ممّا يؤكّد أنّ مسألة تشكيل النّص على الورقة يدلّ على تداخل أجناس الكتابة فيه وهي سِمة أضحت واضحة في الكتابات الشعريّة الحديثة

**الجزء والكلّ**

مَتنُ القصيدة سبعة أجزاء هي :

1-**العنوان والتّصدير** وهما :وادي اللّيل ثمّ أورد آيتين من سورة الشّعراء هما الآية 224و225 ـ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ **(224)** أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ **(225)**

2- **الجزء الثّاني :** ويُفتتح بكلمة الفرحة غير أنها تُفضي الى دلالات الموت والحزن ويُختتم هذا الجزء بوادي اللّيل

3- الجزء الثّالث:ومدار الكلام فيه حول الوادي الّذي يتصدّره وهو كالمقبرة المنسيّة ومنخور الأعضاء بسُوس الوقت ثمّ تلوح فيه شخصيّات هي : الفلّاح ـ النّسوة ـ الشّاعر ـ العرب ـ الجار ـ الأطفال ـ

4- **الجزء الرّابع** :تتأكّد فيه المعاني السّلبيّة المسندة الى الوادي مثل قوله :يخلو منذ الفجر من أشباه رجاله ـ يدفعهم طمع أكال

أو قوله :تهبّ على الوادي ريح الأوهام ـ بل إنّ أجواء الكوابيس تحطّ عليه في قوله ـ في كلّ ضحى تجد الأفراس البائسة أنفسها بين براثن الوحدة والضّجر ـ ويصل الإخبار عن تردّي حالة الوادي الى أقصاها عند قوله ـكان فضاء الوادي يعجّ بالحمّى وبالرّغبات وبالآفات وبالأحزان (ص88).

5 - **الجزء الخامس** : يمثّل الخيبة والانكسار بما أنّ ذلك العاشق لم يحقّق ما كان يصبو إليه من العلاقة الّتي ربطها مع إحدى نساء الوادي فظلّ يتغنّى بالعذاب ويلوك الخيبة مثل قوله :

يحيا العذاب

يحيا الّذي سوّى حياة الشّاعر الآن

خرابا في خراب (ص 90)

6 - **الجزء السّادس** : يبدو كأنّه اِستراحة المحارب المهزوم حيث يتقهقر إلى الوراء ليراجع ذاته ويحاسب نفسه في قسوة قد تصل الى التّشفّي من نفسه مثل قوله :

وكيف إذن تتطاول أنت الحقير الفقير الصّغير المقام على الملكة

ألا فلتمُت في الجفاف ودون رواء !(ص 92)

7 **- الجزء السّابع** :وهو خمسة أبيات على البحر البسيط أوردها الشّاعر كأنّها الخاتمة لكن مع انفتاح على سؤال حول الاختيار بين الحبيبة وبين المستحيل في قوله :

لوخيّروا القلب بين الّتي عشقت

والمستحيلة قل لي من ستختار ?

\*\*\*

إنّ هذه الأجزاء السّبعة ذات اتّصال وثيق بينها قائم على التّسلسل والتّدرّج وعلى التّصاعد والتّنازل وكذلك قائم على التّقابل والتّناقض سواء عند مستوى الوجدان والعواطف أو عند الأدوات والوقائع أو من خلال الشّخصيّات وغيرها من شخوص الحيوان والأشياء

1 - فالتّسلسل والتّدرّج يبدو من العرض السّردي والأخبار عن الشّخص الرّائي( ص84 ) ثمّ عن شخص الرّاوي (ص86).

2 - والتّصاعد والتّنازل يلوح عند استعراض الحياة والنّشاط والشّخصيّات في وادي اللّيل تلك الّتي تصل الى ذروة التّأزّم ثمّ تجد الطّريق الى الخلاص عند لقاء أحد العشّاق بأوّل فرس من أفراس الوادي .

3 - أمّا التّناقض والتّقابل فهو شائع على مستويات عديدة منها خاصّة :

**أ** - مستوى المكان :(الوادي )الّذي يقابله مستوى الزّمان (اللّيل )**ب** - مستوى الكلام المقدّس (القرآن ) الّدي يقابله النّص الشّعري .

**ت** - مستوى الشّخصيّات :حيث أنّ الشّاعر يظلّ في تناقض مع الحبيبة وأهل الوادي

**ث** - مستوى الشّجن :حيث تبدأ الفرحة والأعياد وتسود الأحزان .

**ج**- مستوى الحركة:فثمّة تقابل في النّص بين الانطلاق والتّحرّر والصّعود وبين السّكون ثمّ بين الانبساط والانحدار

**دلالات وأبعاد**

ماهي دلالة تصدير هذه القصيدة بتينك الآيتين من القرآن ?

هل وردتا كمقدّمة لها أم أنّ القصيدة بيان وتفسير لهما?

هل أوردهما الشّاعر للتّبرّك مثلا ؟

أمْ لأنّ القصيدة نُسجت على المنوال القرآني فأضحت ـ مُعارضَة لها ـ ?

للإجابة عن هذه التّساؤلات لا بدّ من العودة الى سياق الآيتين في سورة الشّعراء والإحاطة بتفسيرهما وبأسباب نزولهما وهذا قد يوغل بنا بعيدا لكنّه يؤكّد من ناحية أخرى إشارة الشّاعر إلى المحاكاة والمعارضة الشعرية للنص القرآني باِعتباره المثل الأعلى في الفصاحة والبيان وهذا يبدو بوضوح على المستوى الأسلوبي بداية من معجم الألفاظ الى نسق الجملة وإيقاعها مثل قوله في بداية القصيدة :

سبحان الملك القدّوس ..قد فاقت قدرته على الخلق (ص84)

ومثل قوله :

قل إلهي انّي رجل قد أغرقه العسل ,وإنّك لم ترسل لي عونا يهلكني النحل ,وردّ إليها البصر (ص89)

بل انّ القصيدة تتماهى مع النّصّ القرآني بقوله في الجزء السادس من القصيدة :

ألا فلتمُت في الجفاف ودون رواء ,سنقرأ عليك الّذي يتيسّر من سورة الشّعراء .

فكأنّ الآيتين المصدّرتين بهما القصيدة تضمين لما ورد في السّياق وهكذا تكون القصيدة عود على بدء لتداخل سياقات الكلام فيها بين المقدّس الى المؤنَّس وبين اللّامحدود إلى المحدود ومن الأزلي الى الزّمني ليتوحّد النّصّان بما فيهما من إعجاز وبيان مثل قوله :أنا البلاد ,أحببتكم جدّا ....أعطيتكم شمسي وأنرت ليلكم الطّويل بضوء بدري ,وهبتكم قمحا وزيتونا وفاكهة وأَبّا وأطيارا وأنعاما وأحلاما (ص90)

\*\*\*

إنّ العودة الى النّصّ القرآني اِقتباسًا ومحاكاةً تمثّل إرادة التّأصيل والتحدّي لدى الشّاعر فقد وظّف أساليب متنوّعة مثل السّرد والحوار والتّضمين والوصف إضافة الى استعماله النثر والشّعر العمودي منه والحرّ بحيث أنّ القصيدة استوعبت أجناسا مختلفة من الكتابة

**الفضاء البصري**

أن يكون عنوان القصيدة هو نفسه عنوان المجموعة الشّعريّة يجعلنا نتساءل إن كانت القصيدة جزءا من الكلّ أم أنها هي الكلّ وبقيّة القصائد الّتي وردت في المجموعة أجزاء منها .

المتعارف عليه هو أنّ عنوان القصيدة في تاريخ الشّعر العربي أمر محدث منذ بداية القرن العشرين خاصّة ,ذلك أنّ القصائد القديمة مازالت تعرف الى اليوم إمّا بصاحبها أو بمطلعها أو بقافيتها أو بالمناسبة الّتي قيلت فيها وتُنسب بعض القصائد الى المكان الّذي قيلت فيه أيضا أمّا العنوان فهو أمر طارئ مع الشعر المعاصر

(وادي اللّيل )كلمتان تفيدان تقاطع المكان والزّمان من خلال العمليّة البصريّة فتوحيان بالكثافة والعمق من ناحية وتمثّلان لقاء المحسوس بالمجرّد والمحدود باللّامتناهي من ناحية أخرى

فالوادي هو الإطار لهذه القصيدة المترامية الأبعاد ذلك أنّ المكان كان مسرح الأحداث ومجال التّعبير فهو يمثّل في تاريخ الشّعر العربي المنطلق الّذي تنبثق منه القصيدة فالأطلال في كثير من الشّعر الجاهلي كانت هي القادحة والموقدة لشرارة الالهام حيث يستعيد الشّاعر عندها ذكرى الحبيبة واللّقاءات السّعيدة ومنه الى العوالم الشّعريّة عبر وصف المرأة والرّحلة والرّاحلة ضمن تطوّر الأغراض الى أن يصل الى القصد .

ولقد ظلّ مبعث الهام بقيّة الشّعراء في سائر العصور بل إنّ عيون الشّعر العربي تستند على ذكريات الأمكنة بما دار فيها من أحداث ووقائع ذاتيةً كانت أو عامّة جماعيّة وما قصائد جميل بثينة وعمر بن أبي ربيعة في القرن الأوّل للهجرة إلّا من وحي الأمكنة المختلفة في الحجاز سواء في البادية أو في مكّة والمدينة وما قصيدة علي بن الجهم في العيون الّتي أخذت بلبّه إلّا من تأثير حيّ الرّصافة والجسر في مدينة بغداد , وما كثير من شعر أبي تمّام والمتنبّي وأبي فراس إلّا من وحي المعارك الّتي دارت رحاها بين العرب والرّوم في (عمّورية )و(الحدث )و (خرشنة )وغيرها ,وكذلك شأن الشّعراء المغاربة مع تأثير المكان فيهم بما في الأندلس من جمال ووجدان وبما شهدته من وقائع وأحداث فالزهراء وقرطبة وبلنسيّة وصقليّة وأغْمات والقيروان هي التي ألهمت شعر اِبن زيدون والحصري واِبن حمديس والمعتمد بن عبّاد وأبي البقاء الرندي وغيرهم .

وقد تواصل تأثير المكان في مدوّنة الشّعر العربيّ الحديث الّذي أمسى هو أيضا زاخرا بأسماء البلدان والمدائن وحتّى القرى والأحياء خاصّة عندما ترتبط بعض القصائد فيه بالسّيرة الذّاتيّة للشّاعر أو بالمواضيع الاجتماعيّة والسّياسيّة فأسماء مثل بورسعيد وبيروت وبنزرت ووهران والقدس أو مثل جيكور وتلّ الزّعتر وحمّام الشّط والعامريّة حاضرة بكثافة في الشّعر العربي الحديث لما شهدته من أحداث ووقائع كانت مناسبات ألهمت القصائد الّتي تمخّضت عنها وما تزال تُحيل الى ذاكرتها في كلّ آن .

وما ـ وادي اللّيل ـ وهي الضاحية الغربية للعاصمة تونس وحيث سكنى الشاعر إلّا القادحة التي ألهمت قصيدة صلاح الدّين الحمّادي حيث تبدو فيها العين المصدر الأساسي للشّاعرية بما تسجّله خلالها من ألوان وأحجام وأشكال وحركات ويتجلّى ذلك منذ العنوان على الغلاف ومنذ التّصدير في الآية ومنذ المطلع الّذي جاء فيه :

للفرحة وجهان وكذلك حدّان كما السّكّين , كما الانسان , مات الشّعر بها فانشرح صدر السّلطان ومشت فوق قبور العشّاق المرأة في زهو مثل الطّاووس .

ثمّ قوله :قال الرّائي (ص 84)

فالمجال البصري واضح في أغلب هذه الكلمات (وجهان – حدّان – السّكين – الإنسان - انشراح -صدر – السلطان –مشت- فوق- قبور – العشاق –المرأة – الطّاووس – الرّائي ).

بل إن التّشبيه هو أيضا قائم على البصر وقد كان قوله :كما الإنسان ..وفي قوله :مثل الطّاووس

ان الصّورة الحسّية تتردّد بكثرة في القصيدة سواء في المناظر أو التّشابيه إضافة الى المرئيّات الأخرى من مكان وعناصر وشخوص ونباتات وغيرها مثل قوله :

كان الوادي على نفسه منكفئا

مثل المقبرة المنسيّة

منخور الأعضاء بسُوس الوقت

كفلّاح أنهكه التّعب (ص 85)

فالمشهد هنا قائم على ثبات الحركة والصّورة وفي قوله بعده :

أحيانا تدفعها الرّيح

فتعلق في إحدى السّدرات

النّساء يخرجن صباحا

كي تحتطب الواحدة منهن حديثا ص( 85)

فيتحوّل المشهد من الثّبات الى الحركة وكانت العين دائما هي النّاقل والواسطة ولكن لا بدّ من ملاحظة هذا العدول والانزياح من قاموس المحسوس والملموس الى السّجلّ المعنوي ذي الدّلالات الذّهنية عند قوله (سوس الوقت) وعند قوله (تحتطب الواحدة منهن حديثا )أو( ريح الأوهام )(ص87)

إذن يمكن القول إن فضاء العين أو الإيقاع البصري واضح الحضور في هذه القصيدة الّتي تقوم على التّدرّج والتّقابل من حيث الحركة وتقوم على ثنائيّة الظّلام والنّور وعلى ثنائيّة الماء والجفاف بالإضافة الى ثنائيّة الذّكر والأنثى الواضحة التّناقض في فضاء الوادي المزدحم بتعاكس القيم والرّغبات العاكسة للصّراع من أجل تحقيق الذّات وتواصل الحياة

انّ شاعرية قصيدة ـ وادي الليل ـ تتمثّل من خلال مستويات عديدة ضمن المبنى والمعنى وما المجال البصري فيه بمختلف مظاهره إلّا أحد تلك الأبعاد الجماليّة حيث أنّ النّص البديع ثريّ بدلالته ومتعدّد بمجالاته .